﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٦ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ٩﴾

[السّجدة: 6 - 9]

❁ مُناسَبَةُ الآيات لِما قَبْلَها:

الرَّبطُ بين تدبير الله للأكوان وبين مراحل خَلْق الإنسان

لمّا ذكرَ اللّهُ ﷻ في الآيات السّابقة كيفيَّةَ خلقِ السَّماوات والأرض في ستَّة أيّام، ثمَّ استوى على العرش، وذكر مِن خَلْقِه العظيم السَّماوات والأرض والعرش، وأنَّ الخَلْق لا تستغني عنه، لضعفها وحاجتها؛ دلَّ ذلك على علمه المطلق للغيب والشَّهادة، ودلَّ على إحسانه وتفضُّله في تدبير شؤون هذا المخلوق الَّذي صوَّره وأحسن تصويره، فكانتِ الآيات أدلَّةً قاطعة على هيمنته وعِلْمِه المُطلق، وحُسْنِ تدبيرِه، على الرَّغم من قلَّة الشُّكر.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾: (غيب) أصلٌ صحيح يدلُّ على تَستُّر الشَّيء عن العُيون، والغيب: ما غاب، ممّا لا يعلمه إلّا الله[1]، والغَيْبُ: مصدر غابَتِ الشَّمسُ وغيرُها؛ إذا استترت عن العين، واستُعمل في كلِّ غائبٍ عن الحاسَّة، وعمّا يَغيبُ عن علم الإنسان، بمعنى الغائِب، قال تعالى: ﴿وَمَا مِنۡ غَآئِبَةٖ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٧٥﴾ [النّمل: 75]، ويقال للشَّيء: غَيْبٌ وغائِبٌ باعتباره بالنّاس لا بالله تعالى، فإنَّه لا يغيب عنه شيءٌ، كما لا يعزب عنه مثقال ذرَّة في السَّموات ولا في الأرض، وقوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾، أي: ما يغيب عنكم وما

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غيب).

تشهدونه، والغَيْب في قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: 3]، ما لا يقع تحت الحواسِّ[1]، والمراد بالغيب في الآية: ما لا يعلمه إلّا الله.

2) ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: (شهد) أصلٌ يدلُّ على حضورٍ وعِلْم وإعلام، ومن ذلك لفظ الشَّهادة، وهو يجمع الحضور والعِلْم والإعلام، يقال: شهد يشهد شهادة[2]، والشَّهادَةُ: الحضور مع المشاهدة، إمّا بالبصر، أو بالبصيرة، وقد يقال للحضور مفردًا، قال الله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾، لكنَّ الشُّهود بالحضور المجرَّد أولى، والشَّهادة مع المشاهدة أولى، والشَّهادَةُ: قولٌ صادر عن علم حصل بمشاهدة بصيرة أو بصر، وقوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾، أي: ما يغيب عن حواسِّ النّاس وبصائرهم، وما يشهدونه بهما[3].

3) ﴿نَسْلَهُۥ﴾: (نسل) أصل صحيح يدلُّ على سَلِّ شيءٍ وانسلالِه، والنَّسْل: الولد؛ لأنَّه يُنْسَل من والدته، وتناسلوا: وُلِدَ بعضُهم من بعض[4]، والنَّسل: الخلق، والنَّسل: الذُّرِّيَّة، والجمع أنسال، وكذلك النَّسيلة، وقَدْ نَسَلَ يَنْسُلُ نَسْلًا، وأَنْسَلَ وتناسلوا: أنسلَ بعضُهم بعضًا، وتناسل بنو فلان؛ إذا كَثُر أولادُهم، قال ابن برّي: يقال: نسل الوالدُ ولدَه نسلًا[5]، والمراد بالنَّسل في الآية الولد والذُّرِّيَّة، أو الخلق.

4) ﴿سُلَٰلَةٍ﴾: (سلّ) أصلٌ يدلُّ على مَدِّ الشَّيء في رفقٍ وخفاء، ثمَّ يُحمَل عليه[6]، والسَّلُّ: انتزاعُ الشَّيءِ وإخراجُهُ في رِفْقٍ، سَلَّهُ يَسُلُّهُ سَلًّا، واسْتَلَّه فانْسَلَّ[7]، والسُّلالة: ما سُلَّ من صُلْب الرَّجُل وتَرائب المرأة، كما يُسَلُّ الشَّيءُ سَلًّا، والسَّليلُ: الولد، سُمّي سَليلًا حين يَخرُج من بطن أُمِّه، والسُّلالة: الماءُ يُسَلُّ من الظَّهْر سلًّا، والسُّلالة: النُّطفة والولد[8].

5) ﴿مَّهِينٍ﴾: (مهن) أصلٌ صحيح يدلُّ على احتقار وحَقارةٍ في الشَّيء، منه قولهم: مهين، أي: حقير، والمهانة: الحقارة، وهو مهين بيِّن المَهانة[9]، والمَهين: المُستضعف، قال

(1) الرّاغب، المفردات: (غيب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شهد).
(3) الرّاغب، المفردات: (شهد).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نسل).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (نسل).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سلّ).
(7) ابن سيده، المحكم: (سلل).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سلل).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مهن).

تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾ أرادَ الضَّعيف، وهُوَ فعيل من المهانة[1]، والمعنى المِحوريُّ: خُلُوُّ الشَّيءِ من مادَّة الغِلَظِ والشِّدَّة، فيكون ضعيفًا أو سَهْلًا[2].

6) ﴿سَوَّىٰهُ﴾: (سوي) أصلٌ يدلُّ على استقامة واعتدال بين شيئين، يقال: هذا لا يساوي كذا، أي: لا يعادله، ويقال: أسوى الرَّجلُ؛ إذا كان خَلْقُه وولدُه سَوِيًّا[3]، وتسويةُ الشَّيء: جَعْلُهُ سواءً في الرِّفعة أو الصِّفة، والمعنى المِحوريُّ: استقامةُ ظاهرِ الشَّيء أو سطحه، لامتلاء غِئور وسَطِه، أي: إكمال نقصِ ذلك الغِئور[4].

7) ﴿وَنَفَخَ﴾: (نفخ) أصلٌ صحيح يدلُّ على انتفاخ وعُلُوٍّ، ومنه انتفخ الشَّيءُ انتفاخًا[5]، والنَّفْخُ: نَفْخُ الرّيحِ في الشَّيء، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ﴾ [طه: 102]، ومنه نَفْخُ الرُّوح في النَّشأة الأُولى، قال: ﴿وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: 29] يقال: انتفَخ بطْنُهُ، ومنه استُعيرَ: انتفَخ النّهارُ؛ إذا ارتفع[6].

8) ﴿وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ﴾: (فأد) أصلٌ صحيح يدلُّ على حُمًّى وشِدَّةِ حرارة، من ذلك: فأدتُ اللَّحم: شويتُه، وهذا فئيدٌ، أي: مشويٌّ، والمَفأدُ: السَّفُّود، وممّا هو من قياس الباب الفؤادُ، سُمّي بذلك لحرارته[7]، والفُؤادُ كالقلب، لكن يقال: له فُؤادٌ؛ إذا اعتُبِر فيه معنى التَّفَؤُّدِ، أي: التَّوقُّد، وجمع الفؤاد: أفئدةٌ[8]، وفَأَدْتُهُ فهو مَفْؤودٌ: أصبتُ فُؤادَهُ[9]، وفَأَده يَفْأَدُه فَأْدًا: أصابَ فُؤادَهُ، وفُئِدَ فَأَدًا: شَكا فُؤادَه، ورَجُلٌ مَفْؤُودٌ: جبانٌ[10]، وقيل: الفُؤادُ: وِعاءُ القلب، أو داخِلُه، أو غِشاؤُه، والقلبُ حَبَّتُه[11]، وقد وصف النَّبيُّ ﷺ الأفئدةَ بالرِّقَّةِ، والقُلُوبَ باللّين، فقال: «أتاكُم أهل اليمن، هم أرقُّ أفئدةً، وألينُ قلوبًا»[12].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 251.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (مهن).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سوي).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (سوي).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نفخ).
(6) الرّاغب، المفردات: (نفخ).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فأد).
(8) الرّاغب، المفردات: (فأد).
(9) الجوهريّ، الصّحاح: (فأد).
(10) ابن سيده، المحكم: (فأد).
(11) الزبيدي، تاج العروس: (فأد).
(12) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (4127)، ومسلم في صحيحه، برقم: (52).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تـجـلّي دلائـلِ عـظَـمـة الـلـه تعالى في مراحل خـلـق الإنـسـان البديعة

تتناول الآياتُ القدرةَ المطلقة لله ﷻ، فهو المُدبِّر لهذه الأمور، وهو العالم بجميع الأشياء، يعلم ما يغيب عن الأبصار، ممّا يجول في خَلَجات النَّفس، وما لا تدركه العينُ المجرَّدة، ويعلم ما هو مشاهَدٌ تُعاينه الأبصار، مع عِزَّته ورحمته بعباده، ودليلُ العظَمة والرَّحمة أنْ خلق الأشياء مع الإتقان والإحكام، وبدأ خلْقَ آدمَ من طين، ثمَّ جعل ذُرِّيَّة الإنسانِ يتناسلون من امتزاج نطفة الرَّجل بماء المرأة، فيتمُّ التَّوالدُ والتَّناسلُ وبقاءُ النَّوع الإنسانيِّ من خُلاصةٍ من ماء ضعيفٍ مُمْتَهنٍ، ثمَّ بعدَ خَلْقِهِ من تراب جعله سويًّا مستقيمًا، فقوَّم أعضاءَه، وعَدَّلها، وأتمَّها، ونفخ فيه الرّوحَ الَّتي هي من أمر الله، والَّتي لا يعرف حقيقتَها إنسانٌ، فبدأ يتحرَّك، وينمو، وأنعم عليه بالحواسِّ، فمنحه السَّمعَ والأبصارَ والعقول، ومع كلِّ ذلك؛ فإنَّكم - أيُّها النّاس - لا تقابلون هذه النِّعمَ بالعِرفان والوفاء، والشُّكرِ والامتنان، وإنَّما تشكرون ربَّكم قليلًا على هذه النِّعَم الَّتي رزقكم إيّاها، باستعمال تلك الحواسِّ في طاعته واتِّباع مرضاته.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نُكْتَةُ فصل ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ عمّا سبقها:

أهـمّـيَّـة بـيـانِ الـكـمـال المُطلق مـع الاخـتـصـار والإيجاز

نُكْتَةُ الفَصْلِ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾، هو كمالُ الاتِّصال؛ لتعلُّق هذه الصِّفات بموصوفٍ واحدٍ، هو اللهُ ﷻ، ويمكن أن يكون الفصلُ للاستئناف البيانيِّ؛ جوابًا عن سؤالٍ مقدَّر: كيف يُدبِّر الأمرَ مِنَ السَّماء إلى الأرض؟ أو لماذا يُدبِّر الأمر؟ فكانت الإجابة: لأنَّه يعلم غيبَ السّماوات والأرض، ولعلَّ مِن أغراض الفصل التَّمهيدَ لاسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ الَّذي يدلُّ على أمرين: **الأوَّل:** عظمةُ الخالق وكمالُه المطلق المتناهي، بما يدلُّ عليه اسمُ الإشارة، الَّذي يدلُّ على البعيد المُعَظَّم، **الثّاني:** ربطُ الكلام واتِّصالُه بوسيلة

من وسائل الرَّبط، والرّابط هنا اسمُ الإشارة، وقد أشار علماءُ العربيَّة إلى أنَّ اسم الإشارة من روابط الجُمَل[1]، مع ما فيه من اختصار منطقٍ، فبدلًا من القول: (ذلك الخالق، المدبِّر هو عالم الغيب)، فكان اسمُ الإشارة أخصرَ في الكلام، ودالًّا على المحذوف المفهوم من سياق الكلام.

بلاغةُ إعراب ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾:

اسم الإشارة مبتدأ، و﴿عَٰلِمُ﴾ هو الخبر، و﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾ مضاف إليه، ثمَّ العاطف والمعطوف ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾، إذًا الجملةُ هنا جملةٌ اسميَّة، اتَّكأت على المبتدأ والخبر، بما يعني ثباتَ العِلْم وديمومتَه واستمرارَه.

ديمومةُ العِلْم واستمرارُه يُناسِب اسميَّةَ الجملة

فائدةُ التَّعبيرِ باسم الإشارة للبعيد:

جيء بالإشارة إلى اسم الجلالة بعدَ ما أُجريَ عليه من أوصاف التَّصرُّف بخلق الكائنات وتدبير أمورها؛ للتَّنبيه على أنَّ المشار إليه باسم الإشارة حقيقٌ بما يَرِد بعدَ اسم الإشارة من أجل تلك الصِّفات المتقدِّمة[2]، من كونه ربَّ العالمين، المُدبِّرَ، القادرَ، المُتحكِّمَ، وقد تستعمل العربُ الإشارةَ إلى البعيد الغائب مكانَ الإشارةِ إلى القريب الحاضر[3]، فيكون اسمُ الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ دالًّا على اسم الإشارة (هذا)؛ للإيذان بعُلُوِّ شأنه وكونِه في الغاية القاصية من الفضل والشَّرف[4].

بيانُ عظَمة الخالق وهيمنَتِه على الموجودات

فائدةُ تعريفِ طَرَفي الإسناد:

في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ تعريفُ لطرفَي الإسناد يُفيد الاختصاص[5]، فالتَّعريفُ واشٍ باختصاص الله تعالى بغيب السَّماوات والأرض، لا عالمَ لهما غيرُه، ففي التَّعريف فرطُ علمٍ

بيانُ اختصاصِ الله ﷻ بالعِلْم الشّامل

(1) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 647.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 214.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 1/ 39.
(4) القنوجيّ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 1/ 73.
(5) محمّد أبو موسى، خصائص التّراكيب، ص: 338.

بشؤون هَذي المخلوقات، من خالقٍ أحدٍ صَمَدٍ، فكأنَّ التَّعريف هنا - إضافةً إلى الاختصاص - قُصِدَ به المبالغةُ في قَصْر المُسنَد على المُسنَد إليه، وهو قَصْرٌ حقيقيٌّ تحقيقيٌّ.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿عَٰلِمُ﴾:

الإدراكُ التّامُّ بحقائق الأشياء وطبيعتها

اسم الفاعل ﴿عَٰلِمُ﴾ دالٌّ على ثبات العِلْم ودَيمومته؛ لأنَّ اسم الفاعل يدلُّ على تمكُّن الفعلِ مِنَ الفاعل، حتّى بات اسمًا له، إضافةً إلى أنَّ (العلم) إدراكُ الشَّيء بحقيقته، وهذا الإدراكُ ضربان، أحدهما: إدراكُ ذاتِ الشَّيء، والثّاني: الحُكم على الشَّيء[1]، فكان العالمُ الحَقُّ هو الله.

نُكْتَةُ التَّعبير بـ ﴿ٱلْغَيْبِ﴾ و﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾:

حَصْرُ كلِّ ما خُلِقَ في لفظتَين جامِعتَين محيطٌ بالمعنى المتُوخَّى

نُكْتَةُ التَّعبير باللَّفظتين: أنَّ الله تعالى أراد بـ ﴿ٱلْغَيْبِ﴾ الآخرةَ، وبـ ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ الدُّنيا، وقيل: أراد بـ ﴿ٱلْغَيْبِ﴾ ما غاب عنِ المخلوقين، وبـ ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: ما شُوهِد مِنَ الأشياء، فكأنَّه حصرَ بهذه الألفاظ جميعَ الأشياء[2].

نُكْتَةُ تقديمِ عِلم الغيب على الشَّهادة:

بيانُ كمالِ العِلم وأنَّ عِلم الله لا تَحُدُّه حُدود

قُدِّمَ العِلم بالغيب على الشَّهادة، في قوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾؛ لأنَّه أقوى وأشدُّ إنباءً عن كمال العِلْم[3]، ثمَّ كان هذا التَّقديمُ للإشارة إلى أنَّ عِلْم الله عِلْمٌ مُطلق، لا تَحُدُّه حدودٌ، فيستوي لديه القريبُ والبعيد، والظّاهرُ والخفيُّ؛ إذ لا قُرْبَ وبُعْد، ولا خفاءَ وظهور؛ لأنَّ ذلك إنَّما يكون بالإضافة إلى العِلْم القاصرِ المحدود، الَّذي يتناول شيئًا، ويقصر عن شيء، أمّا العِلْمُ الكاملُ المطلق، فحقائقُ الأشياءِ كلُّها واقعةٌ في دائرة هذا العِلْمِ كحقيقةٍ واحدة[4].

(1) الرّاغب، المفردات: (علم).
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 358.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 139.
(4) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 11/ 609.

نُكْتَةُ ترتيب ﴿عَٰلِمُ﴾، ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾:

العِلْم أصلُ كلِّ صفةٍ نبيلةٍ وخاصّيَّةٍ أصيلةٍ

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾، وفيها الأخبار: ﴿عَٰلِمُ﴾ ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾، حيثُ إنَّ العِلْم إحاطةٌ بما غاب عنِ الخَلْق وما حَضَر، ولمّا بيَّن سبحانه أنَّه عالمٌ؛ ذكر أنَّه (عزيز) قادر على الانتقام مِنَ الكفرة، (رَحيمٌ) واسعُ الرَّحمة على البررة[1]، فكان العِلْمُ أصلَ كلِّ فعل صادر مِنَ الله ﷻ.

نُكْتَةُ تأخير ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾، وتقديم ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾:

مناسبةُ الصِّفتين للسّابق واللّاحق موفيَةٌ بالبيان السّامق

أخَّر تعالى صفة ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾، مع أنَّ رحمته سبقت غضبه؛ ليُوصله بقوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾، فالمناسبةُ حاصلة؛ بسبب قُرب المسافة بين الرَّحيم والمحسن، فبينهما لينٌ ولطف، فكان التَّقديم والتَّأخير، إضافةً إلى ما سبق فإنَّ لفظة ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ تحمل معاني القوَّة والقهر، وهذا يناسب معنى العِلم.

حكمةُ التَّذييل بـ ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

القدرة المطلقة مع إنذار الكفّار وتأنيس النَّبيِّ المختار

مناسبة وصفِه تعالى بـ ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾، عقبَ ما تقدَّم من أنَّه خلق الخلقَ بمحض قدرته بدون مُعين، فالعزَّة - وهي الاستغناء عن الغير - ظاهرة، وأنَّه خلقهم على أحوالٍ فيها لطفٌ بهم، فهو رحيم بهم فيما خلقهم؛ إذ جعل أمورَ حياتهم ملائمةً لهم، فيها نعيم لهم، وجنَّبهم الآلام فيها، فهذا سبب الجمع بين صفتَي العزيز والرَّحيم هنا، على خلاف الغالب من ذكر الحكيم مع العزيز[2]، ثمَّ في اسمه ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ تناغمٌ مع الإنذار والتَّهديد للمعانِدين، وفيه تأنيس أيضًا للنَّبيِّ ﷺ[3]، فـ ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ هو الَّذي لا يُغلَب، ولا يُقهر، فلا يَلويه أحدٌ عن عِلْمه، ولا عن مُراداته في كَوْنِه، ومع عِزَّته فهو سبحانه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾[4].

(1) ابن عادل، اللُّباب: 15/ 447.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 215.
(3) محمود سعد، العزف على أوتار الذكر، ص: 41.
(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 19/ 11798.

دلالةُ المبالغة في لفظي ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

ثباتُ الصِّفات مع الدَّعوة للطّاعة والإقلاعِ عن الذَّنب

﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ صفتان مشبَّهتان، جاءتا على صيغة (فَعيلٌ)؛ للمبالغة في تحقُّقِهما، ومِن سمات الصِّفة المشبَّهة الدِّلالةُ على الثَّبات والدَّيمومة، وشِدَّة اتِّصاف الصِّفة بصاحبها، وهذا كائن في الصِّفتين ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾، فإنَّهما تُوجبان الخوفَ والرَّجاءَ اللَّذَين بهما لزومُ الطّاعات، والرَّغبةُ فيما علا مِنَ الدَّرجات[1]، أمّا ثباتُ الرَّحمةِ؛ فَلِلإقلاع عنِ الذُّنوب، والعودةِ للخالق البارئ.

علاقةُ قوله: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ﴾ بما قبله:

الإحسانُ في كلِّ شيء دليلُ العظمة والكمال

في الآية الرّابعة بيَّن اللّهُ ﷻ دليلَ الوحدانيَّة بآيات الآفاق بقوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾، وأتمَّه بتوابعه ومكمِّلاته، وفي الآية التّالية ذَكَرَ الدّليلَ الدّالَّ على الوحدانيَّة من الأنفس بقوله: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ﴾، يعني: أحسن كلَّ شيء ممّا ذكره، وبيَّن أنَّ الَّذي بين السَّموات والأرض خَلْقُه.

دلالةُ الوجوه الإعرابيَّة للاسم الموصول ﴿ٱلَّذِيٓ﴾:

أثرُ السّياق في بيان الثَّبات والاعتراف بعظَمة الخالق

الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِيٓ﴾ في قوله: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ﴾، يجوز فيه أن يكون خبرًا رابعًا، - الأوّل: ﴿عَٰلِمُ﴾، والثّاني والثّالث: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ - ، أو نعتًا، أو خبرًا لمبتدأ مُضْمَر، وأن يكون منصوبًا على المدح[2]، وهذه الأوجهُ النَّحويَّةُ، جعلتِ الاسمَ الموصولَ في سياق الجملة الاسميَّة الدّالَّةِ على الثَّبات والدَّيمومة، وجعلتْهُ كذلك في سياق الجملة الفعليَّة عند النَّصب على المدح، فالاسمُ الموصول في محلِّ نصبٍ مفعولٌ به لفعل محذوف، تقديره: (أمدح)، وفيه اعترافٌ بعظَمة الخالق المحسن إلى عباده.

(1) الإسكافيّ، غرّة التّنزيل: 1/ 963.

(2) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 543.

دلالةُ الاسم الموصول وصلتِه:

بـيـانُ الارتـقـاء في الـخَـلْـق مع التَّمهيد لـذِكْر الصِّلة

استُعْمِلَ الاسمُ الموصول وصلتُه، في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ﴾؛ للارتقاء في الاستدلال، وهو مشوب بامتنان على النّاس بأن أحسن خَلْقَهم، في جملة إحسان خَلْق كلِّ شيء[1]، إضافةً إلى أنَّ الاسم الموصول فيه تمهيدٌ للصِّلة بعدَه ﴿أَحۡسَنَ﴾، والماضي دالٌّ على ثبات الإحسان واستقراره، كما أنَّ في الفعل ﴿أَحۡسَنَ﴾ إرشادًا إلى أنَّه لا ينبغي لأحد أن يستقبح شيئًا من المخلوقات[2]، وقد يُضاف إلى ذلك التَّشويقُ؛ انتظارًا لذِكْر الصِّلة، فالاسم الموصول اسمٌ ناقص، فتنتظر النَّفسُ صلتَه وما تحويه من دلالات، فيصير النّاقصُ كاملًا بصلته الَّتي تُكْمِل معناه ومُرادَه، كما أنَّ في الاسم الموصول إشارةً إلى خطورة جملة الصِّلة، وكأنَّها أخصُّ العلامات[3].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿أَحۡسَنَ﴾:

بـيـانُ الحِكمة والمـصـلـحـة في حُـسْـن الـخَـلْـق مع اتِّساع المعنى

نُكْتَةُ التعبير بلفظ ﴿أَحۡسَنَ﴾، أنَّه ما مِن شيء خَلَقَهُ اللّه إلّا وهو مُرتَّب على ما اقتضته الحكمةُ، وأوجبته المصلحةُ، فجميعُ المخلوقاتِ حسنةٌ، وإن تفاوتت إلى حَسَنٍ وأحسن، كما قال تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِىٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٍ ۝٤﴾ [التّين: 4][4]، ويُضاف إلى ذلك أنَّ الكلمةَ على وزن (أفعل)، وفيه اتِّساع في المعنى المُراد، فقد يدلُّ على الجَعْل، فيكون المعنى الأول: جعله حَسَنًا، والثّاني: أحكم كلَّ شيء، والثّالث: أحسنَه، ولم يتعلَّمه من أحد، كما يقال: فلانٌ يُحْسِن كذا، والرّابع: أنَّ المعنى ألهَمَ خَلْقه كلَّ ما يحتاجون إليه، كأنَّه أعلمهم كلَّ ذلك وأحسنهم، والخامس: أحسن إلى كلِّ شيء خَلْقه[5]، ويقال إضافةً إلى ذلك: إنَّ المراد بالحُسْن ليس مجرَّدَ حُسْنِ الصّورة، وإنَّما هو

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 215.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 138.
(3) إبراهيم الهدهد وآخرون، موسوعة الفروق اللّغوية واللّمحات البيانيّة: 4/ 542.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 508.
(5) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/ 438.

الحُسْن الَّذي يتجلّى في إحكام الصُّنعة، ودقَّة التَّنسيق، وروعةِ التَّأليف، وتجاوبِ النَّغم، ووحدةِ الغاية، وإن اختلفت الاتِّجاهات، وتعدَّدت الأنغام: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ﴾ [الملك: 3][1].

حكمةُ التَّعبير بلفظة ﴿كُلَّ﴾:

بيانُ تساوي كلِّ الخلْق في الإيجاد والحُسْن

لفظة ﴿كُلَّ﴾ في قوله: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ﴾، أفادتِ العمومَ، والظّاهر أنَّه عموم الأفراد، أي: أعطى كلَّ شيءٍ مِنَ الأشياء الأمرَ الَّذي طلبَه بلسان استعدادِه، مِنَ الصّورة والشَّكلِ والمنفعةِ والمضرَّة، وغيرِ ذلك، أو الأمرَ اللّائق بما نيْطَ به مِنَ الخواصِّ والمنافع المطابقِ له، كما أعطى العينَ الهيئةَ الَّتي تُطابق الإبصار، والأُذنَ الشَّكل الَّذي يوافقُ الاستماع، وكذلك الأنفُ واليدُ والرِّجلُ واللِّسانُ، كلُّ واحدٍ منها مطابِقٌ لما عُلِقَ به مِنَ المنفعة، غيرَ نابٍ عنه[2]، وذلك بيانٌ للقدرة المطلقة، والحِكمة العظيمة، من خلال عدمِ التَّفاوت فيما خُلِقَ.

دلالةُ تنكير لفظة ﴿شَيۡءٍ﴾:

إبرازُ اللَّفظ في السّياق الكريم للعموم والتَّعظيم

دلَّ التَّنكير للَفظة ﴿شَيۡءٍ﴾ في قوله: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ﴾، على العموم؛ ليشملَ كلَّ مخلوقٍ، سواء أكان عاقلًا أم غير عاقل، صغيرًا أم كبيرًا؛ بيانًا للقُدرة المُطْلقة، والهيمنة العظيمة على كلِّ مخلوق، وقد يُفيد التَّنكيرُ هنا التَّعظيمَ والتَّكريمَ، بقرينة صلةِ الموصول ﴿أَحۡسَنَ﴾، فكلُّ شيءٍ حسنٌ جميل، فناسبَ جمالُ الشَّيء خالقَ الشَّيء وتدبيرَه وإحسانَه.

توجيهُ القراءات القرآنيَّة في ﴿خَلَقَهُۥۖ﴾:

بيانُ ما في الخَلْق مِنَ الامتنان وخصوصًا في خَلْق الإنسان

في قوله تعالى: ﴿خَلَقَهُۥۖ﴾ قراءتان، فقد قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب: ﴿خَلْقَهُۥۖ﴾ ساكن اللّام، فهو هنا

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 11/ 609.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 504.

منصوب على البدليَّة، وقيل: منصوب على أنَّه مصدر منصوب لفعل محذوف، وهو مذهب سيبويه، ورجَّحه على بدل الاشتمال، بأنَّه أبلغُ في الامتنان؛ لأنَّه إذا قال: ﴿أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ﴾؛ كان أبلغَ مِن (أحْسَنَ خَلْقَ كلِّ شَيْءٍ)؛ لأنَّه قد يَحْسُن الخَلْق، وهو المحاولة، ولا يكون الشَّيءُ في نفسه حسنًا، وإذا قال: ﴿أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ﴾؛ اقتضى أنَّ كلَّ شيء خَلَقَه حَسَنٌ، بمعنى أنَّه وضع كلَّ شيء في موضعه، وقرأ الباقون بتحريك اللّام[1]، ويجوز على قراءة التَّسكين أن يكون الفعل: ﴿أَحۡسَنَ﴾ هنا معناه: ألْهَمَ، وأنَّ هذه الآية بمعنى قوله تعالى: ﴿أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه: 50]، أي: ألهَمَ[2]، ويجوز فتحها على الفعل الماضي، فيكون المعنى أحسنَ خَلْقَ كلِّ شيء خَلَقه[3]، ويتكامل المعنى القرآنيُّ من خلال القراءتَيْن، فالله تعالى أحسن في كلِّ شيء خَلَقَهُ، ويَخْلُقُهُ، وفي كلِّ شيء مخلوقٍ من مخلوقاته.

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَبَدَأَ﴾:

دلالةُ التَّخصيص بعد التَّعميم للتكريم والتعظيم

الواو في قوله: ﴿وَبَدَأَ﴾ عاطفةٌ، وهو تخصيص بعد تعميم خلق الإنسان، وهو آدم عليه السلام، بدليل قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ﴾ أي ذريته[4]، والتَّخصيصُ بعدَ التَّعميم دالٌّ على التَّفرُّد والتَّكريم، فهو ليس كلَّ المخلوقاتِ، وإنَّما هو خَلْقٌ ممتازٌ عن غيره.

دلالة الفعل ﴿وَبَدَأَ﴾ في التَّركيب:

ارتباطُ علاماتِ التَّكريم والإبداع والسِّيادة بالإنسان

للفعل ﴿وَبَدَأَ﴾ في قوله: ﴿وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ﴾ عِدَّةُ دلالاتٍ تُشير إلى الاهتمام والرِّعاية والاصطفاء، فالفعل بمعنى: أنشأ الأشياءَ، واخترعَها ابتداءً من غير مثال[5]، ثمَّ فيه معنى الإبداع،

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 347، وابن عادل، اللّباب: 15/ 447، وهي قراءة: نافع وعاصم وحمزة والكسائيّ وخلف.
(2) الثّعالبيّ، الجواهر الحسان: 4/ 327.
(3) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/ 347.
(4) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 5/ 346.
(5) ابن منظور، لسان العرب: (بدأ).

نقول: جاء بأمر بَديء، أي: عجيب، وبَديءُ مِن: بدأت، فالبَديء: هو الأمرُ البَديع، وفي البَدْءِ معاني السّيادةِ والسُّؤْدُد[1]، ولو خلا التَّركيب مِن الفعل ﴿وَبَدَأَ﴾؛ لفاتت هذه المعاني الملتصقة بالفعل.

دلالةُ التَّعبير بلفظة ﴿ٱلْإِنسَٰنِ﴾:

غـرضُ اللَّفظ إرادةُ الجِنس مع دلالة الاشتقاق

جاءت لفظةُ ﴿ٱلْإِنسَٰنِ﴾ في قوله: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ مُعَرَّفةً بالألف واللّام، وهذا التَّعريفُ دالٌّ على الجنس، والجِنسُ يفيد الاستغراق، أي: كلُّ إنسان، وإن أُريدَ بالإنسان هنا الإنسانُ الأوَّلُ سيِّدُنا آدم[2] ﷺ، ولعلَّ التَّعبيرَ بالإنسان دونَ آدمَ؛ لأنَّ جِنس الإنسان هو المقصود بالخطاب بهذا القرآن[3]، ثمَّ إنَّ لفظة الإنسان تقع على الواحد والجميع[4]، إضافةً إلى أنَّ لفظة ﴿ٱلْإِنسَٰنِ﴾ مأخوذة مِنَ النِّسيان[5]، فينسى مِنَنَ الإلهِ عليه، وهو خالقُهُ، فكان لفظُ ﴿ٱلْإِنسَٰنِ﴾ هو الأنسب والأولَى.

دلالاتُ التَّعبير بقوله: ﴿مِن طِينٍ﴾:

بيـانُ بـدء الخَلق والمَقدرة عليه وتعظيم المخلوق

دلَّت ﴿مِن﴾ الجارَّةُ في قوله: ﴿مِن طِينٍ﴾ على ابتداء الغاية[6]، فمعنى ذلك: أنَّ أوَّل الخَلْقِ كان مِنَ الطّين الذي جمع بينَ الماء والتُّراب، وفيه إلفاتٌ إلى وحْدَة من وحَدات هذا الخَلْق، وإشارةٌ إلى مواطن هذا الحُسْن منه، وهو خَلْق الإنسانِ من طين، ففي هذا الطّين - الَّذي قد تنبو عنه العين، ويتحاشاه النَّظر - حُسْنٌ رائعٌ، وجلالٌ مهيبٌ؛ إذا استطاع النّاظرُ أن ينفذ إلى ما وراء هذا الظّاهر الَّذي يراه، وأن يتجاوز هذه القشرةَ السّوداءَ المُعْتِمَة مِنَ الطّين، فإنَّ وراء هذه القشرةِ عالمًا يَمُوجُ بألوانٍ زاخرةٍ زاهيةٍ مِنَ الحياة، فما

(1) ابن منظور، لسان العرب: (بدأ).
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 9.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 244.
(4) ابن عادل، اللّباب: 14/ 176.
(5) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (نسي).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 215.

هذه الأناسيُّ الَّتي تتحرَّك على ظهر الأرض، وتملأُ الحياةَ حركةً وعُمْرانًا، إلّا بعضُ هذا الطِّين الَّذي نَمشي عليه، ونَنْطَلق فوقَه، فهذا الطِّين ليس في عين ذوي البصائِر طينًا جامِدًا، صامتًا، كئيبًا، وإنَّما هو الجَمالُ كلُّه، والحُسْنُ كلُّه، تفتَّقت عنه بقدرة العزيز الرَّحيم هذه الحياةُ المُتدَفِّقَةُ، من إنسانٍ، وحيوانٍ، ونبات، فَبَدْءُ خَلْقِ الإنسانِ من طين، هو نقطةُ الابتداء الَّتي يَبدأ العقلُ مسيرتَه منها، إلى حيثُ يلتقي بالإنسان في أكمل صورته، وأعظم مواقفه، وعندئذٍ يرى كيفَ تدبيرُ الله، وقُدرَتُه[1]، فكان التَّنكيرُ هنا للتَّعظيم.

معنى ﴿ثُمَّ﴾ في السّياق المُحكم:

بيانُ عظمةِ التَّحويل مِن حالة لحالة

الأصل في ﴿ثُمَّ﴾ أنَّها تُفيد التَّراخي الرُّتْبيَّ والزَّمنيَّ، ولمّا كان قلْبُ الطِّينِ إلى هذا الهيكل على هذه الصّورة بهذه المعاني أمرًا هائلًا؛ أشار إليه بأداة البُعد في قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ﴾[2]، و﴿ثُمَّ﴾ يتقارب معناها مع معنى الاسم المشتقِّ مِنَ الكلام، فهي حرف عطفٍ، ولفظُها كلفظة (الثَّمِّ)، وهو رَمُّ الشَّيء بعضه إلى بعض، والمعنى في ﴿ثُمَّ﴾ العاطفة قريب من هذا؛ لأنَّه ضَمُّ شيءٍ إلى شيء بينهما مُهْلة[3]، فكان مناسبًا لوجود المُهْلة بينَ الخلق من طين، ثمَّ جعلِ نسلِه من سلالة، فالمعنيان المختصّان بـ﴿ثُمَّ﴾ قد اجتمعا هنا.

نُكْتَةُ التَّعبير بالجَعْل مع النَّسل:

عموميَّة لفظِ الجَعْل وتغيُّرُ أحوالِ الإنسان

لفظ ﴿جَعَلَ﴾ عامٌّ في الأفعال كلِّها، وهو أعمُّ مِن (فَعَلَ) و(صَنَعَ) وسائر أخواتهما[4]، وكثيرًا ما يأتي فعل الجَعْل بعد الخَلْق في القرآن الكريم - كما هو في هذه الآيات - للدِّلالة على أنَّه ليس إيجادًا من عدمٍ على غير مثالٍ سابق كالخلق، بل هو تحويلٌ وتصييرٌ مِن حالة

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 11/ 609.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 244.
(3) السّهيليّ، نتائج الفكر في النّحو، ص: 124.
(4) الرّاغب، المفردات: (جعل).

إلى أخرى بعد تمام الخلق، فقد أشار في هذه الآيات إلى أنَّه أحسنَ كلَّ شيءٍ خَلَقَهُ، وأنَّه بدأ خلق آدمَ من طين، ثمَّ بعد ذلك جعل نسلَ آدمَ من سلالة من ماء مهين، فالجَعْلُ هنا هو تصييرٌ وتحويلٌ، بعد خلق أبي البشريَّة على غير مثالٍ سابقٍ.

نُكْتَةُ التَّعبير بالنَّسل، مادَّةً وصيغةً:

بيانُ الانفصال من الوالد مع الامتداد وعدمِ الانقطاع

نُكْتَةُ التَّعبير بالنَّسل في قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾؛ لأنَّ النَّسل يعني الولد؛ لكونه ناسلًا من أبيه، منفصلًا عنه، ثمَّ في معنى النَّسل دلالةُ التَّوالد، يقال: تناسلوا، أي: توالدوا[1]، فسُمِّيت الذُّرِّيَّة نسلًا؛ لأنَّها تنسل منه، أي: تنفصل منه، وتخرج من صلبه[2]، وفي هذا دلالةٌ على الاستطالة والامتداد، وعدم الانقطاع، فالنَّسل امتدادُ الشَّيء خارجًا، أو متسيِّبًا من أصله أو مَقرِّه بلُطف ومفارقة[3].

نُكْتَةُ الإضافة في قوله: ﴿نَسْلَهُۥ﴾:

شِدَّةُ اتِّصال الفرع بالأصل مع الرَّبط بالضَّمير

في الإضافة في قوله: ﴿نَسْلَهُۥ﴾ نكاتٌ، أوَّلها: الإضافة دالَّةٌ على ربط آخر الكلام بأوَّله، فالحديث عن الإنسان، فلو كان التَّعبير (ثمَّ جعل النَّسل)؛ لما كان ثَمَّة ارتباطٌ بين اللَّفظتَين ﴿ٱلْإِنسَٰنِ﴾ و﴿نَسْلَهُۥ﴾، فالضَّمير عاملٌ رئيس من عوامل الرَّبط في الجملة، وثانيها: الإضافة جعلت الارتباطَ وثيقًا بين الأصل وفرعه، فهما واحد، وإن تعدَّدت المراحلُ، وثالثها: أنَّ الإضافة بالهاء مهَّدت لكلِّ الضَّمائر الآتية بعدَه في ألفاظ ﴿سَوَّىٰهُ﴾، ﴿فِيهِ﴾، ﴿رُّوحِهِۦ﴾.

معنى ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾:

بيانُ أنَّ جنس الإنسان يتلاءم مع ابتداء الغاية في الخَلْق

﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن طِينٍ﴾ بيانيَّة، متعلِّقة بمحذوف، وهو صفة للسُّلالة، أي: خلقناه من سلالة كائنةٍ من طين[4]، وقيل: ﴿مِن

(1) الرّاغب، المفردات: (نسل).
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 503.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (نسل).
(4) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 565.

سُلَٰلَةٖ﴾ يتعلَّق بـ ﴿خَلَقَهُۥ﴾، و﴿مِن﴾ لابتداء الغاية، أي: إنَّ بَدء الخَلْق من هذا الطّين[1].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بـ ﴿سُلَٰلَةٖ﴾، وتنكيرِها:

الإشارة إلى البُعد عنِ الكَدر والشَّقاء مع الالتصاق بأحوال خَلْق الإنسان

(السُّلالة) في قوله: ﴿مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ۝٨﴾ على وزن (فُعالَة)، وهو بناء يدلُّ على القِلَّة، كالقُلامَة، وهي من سَلَلْتُ الشَّيءَ مِن الشَّيءِ، أي: استخرجْتهُ منه، ومنه قولهم: (هو سُلالة أبيهِ)، كأنَّه انسلَّ من ظهره، وفيها معنى البُعد عنِ الكَدر والشَّقاء، فالسُّلالة الخُلاصةُ؛ لأنَّها تُسَلُّ من بين الكَدَر[2]، ودلالة التَّنكير واشيةٌ بعظَمة تلك السُّلالة، مع تمام الالتصاق بأحوال المخلوق.

دلالةُ ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن مَّآءٖ﴾:

تلاحم معاني حرف المعنى في دلالته على المراد

﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾ بيانٌ لسلالة، فالسُّلالة هي الماء المهين، هذا هو الظّاهر لمتعارف النّاس، ولكن في الآية إيماءٌ علميٌّ لم يدركه النّاسُ إلّا في هذا العصر، وهو أنَّ النُّطفة يتوقَّف تكوين الجنين عليها؛ لأنَّه يتكوَّن من ذرّات فيها، تختلط مع سُلالة من المرأة، وما زاد على ذلك يذهب فضلةً، فالسُّلالةُ الَّتي تنفرز من الماء المهين هي النَّسل، لا جميعُ الماءِ المهين، فتكون ﴿مِّن﴾ – في قوله: ﴿مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾ – للتَّبعيض أو للابتداء[3].

نُكْتَةُ التَّعبير بـ ﴿مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾:

احتمالُ معنى الجملة للحقيقة أو المجاز اتِّساعٌ في الدِّلالة

في وصف النُّطفة بأنَّها ماء مهين إشارةٌ إلى أنَّها شيء رخيصٌ مبتَذَلٌ، لا يَرَى فيها الإنسانُ شيئًا ذا بالٍ، فما هي إلّا ماءٌ مستَقْذَر، هكذا يبدو في ظاهر الأمر، ويمكن حمل المعنى على المجاز أو على الاستعارة، حيثُ شُبِّهَ الماء بالإنسان؛ لأنَّه أصل خِلْقَته، وأُسندت إليه

(1) ابن عادل، اللّباب: 14/ 176.
(2) ابن عادل، اللباب: 14/ 176.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 216.

صفةُ المهانة، وهي من صفات الإنسان، قال تعالى حكايةً على لسان فرعون: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ [الزّخرف: 53]، ويمكن أن يكون مجازًا مرسلًا، باعتبار ما سيكون، ويمكن أن يكون ﴿مَّهِينٍ﴾ على وزن فعيل مِن المِهنة، وهي الخدمة، يقال: مَهَن القومَ يمهَنُهُم مهنةً؛ إذا خَدَمَهم[1]، وقد يقال: إنَّ الغرض من إجراء هذا الوصف عليه الاعتبارُ بنظام التَّكوين؛ إذ جعل اللّٰهُ تكوينَ هذا الجنس المكتملِ التَّركيب، العجيبِ الآثارِ من نوع ماء مهراق، لا يُعْبَأُ به، ولا يُصان[2].

دلالةُ ﴿ثُمَّ﴾ والفعل ﴿سَوَّىٰهُ﴾:

إفـادةُ السّياقِ العنايةَ بالمخلوق وهيئته في كلّ مراحل الخَلْق

أشار التَّعبيرُ بالفعل (سوّى) في قوله: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ إلى عظَمة ما بعدَ ذلك من خَلْقِهِ وتطويره، فالتَّسوية تعديلٌ يُراد منه التَّخطيطُ والتَّصوير، وإبداعُ المعاني[3]، وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ للتَّراخي، فتكون التَّسويَةُ بعد جَعْلِ النَّسلِ من سلالة، وذلك بعد خلق آدم[4].

عودُ ضميرِ المفعول في ﴿سَوَّىٰهُ﴾:

تجميلُ الأصل والفرع ذو أثر في الدّلالة مكين

الضَّمير في قوله: ﴿سَوَّىٰهُ﴾ قد يكون المقصود به آدم، وقد يكون لنسله[5]، فالاتِّحاد قائمٌ بينَ الأصل والفرع، بحيثُ إنَّهما لا ينفصلان، فالأصل قد سُوّي، وكذا الفرع، بحيثُ صارا في الجمال والتَّسوية سواءً بسواء، وقد يقال: الضَّمير المنصوب في ﴿سَوَّىٰهُ﴾ عائد إلى نسله؛ لأنَّه أقرب مذكور، ولأنَّه ظاهر العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾، وإن كان آدمُ قد سُوّي، ونُفِخَ فيه من الرّوح، قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [ص: 72][6].

(1) جعفر شرف الدّين، الموسوعة القرآنيّة، خصائص السّور: 7/ 75.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 216.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 244.
(4) ابن عادل، اللّباب: 15/ 478.
(5) الإيجيّ، تفسير الإيجيّ جامع البيان: 3/ 328.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 216.

بلاغةُ الاستخدامِ في ﴿وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ﴾:

شـدَّةُ الاتِّصال بينَ الأب وذريَّته مظهرٌ للاستمرار والتَّعاقب

قوله: ﴿وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ﴾ الآية، فيه أسلوب الاستخدام، وهو أن يُؤتى بلفظ له معنيان فأكثر، مُرادًا به أحدُ معانيه، ثمَّ يُؤتى بضميره مُرادًا به المعنى الآخر، أو يُراد بأحد ضميريه أحدُ المعنيين، ثمَّ يرادُ بالضَّمير الآخر معناه الآخر، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ۝١٢﴾ [المؤمنون: 12]، فإنَّ المُراد به آدمُ عليه السلام، ثمَّ أعاد الضَّمير عليه، مُرادًا به ولدُه، فقال: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ۝١٣﴾ [المؤمنون: 13][1]، وهذا يشبه ما نحن فيه، فالاسم هنا: (خَلْقَ الإنْسانِ)، ثمَّ أعاد الضَّمير على نسله وذريَّته، فقال: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾، والغرض الإلفات إلى شِدَّة اللُّصوق بين الأب الأوَّل وذُرِّيَّته، لدرجةٍ جعلتِ الاسمَ والضَّمير كأنَّهما شيءٌ واحد.

بلاغةُ قوله: ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾:

دلالـةُ الفعل على التَّميُّز وصلاحيَّته للتَّكليفات

في توظيف الفعل ﴿وَنَفَخَ﴾ تمثيلٌ لإفاضة ما به الحياة بالفعل على المادَّة القابلة لها، وليس هناك نافخ ولا منفوخ، وقد يقال: إنَّ هذه النَّفخةَ الإلَهيَّةَ هي سِرُّ تميُّز الإنسان عن سائر مخلوقات الله في الأرض، وهي الَّتي أهَّلتْهُ لإسجاد الملائكة له، ولاصطفاء الله بعضَ البشرِ للوحي والنُّبوَّة والعِلْم، بل هي المؤهِّلة لهم، لكلِّ ما يتجلّى به سبحانه عليهم، ويَخصُّهم به من مخاطبةٍ وتكليفات ومحاورات، ولولا تلك النَّفخةُ الإلهيَّة ما كان البشر أهلًا لشيء من ذلك كلِّه[2]، وقد يقال: إنَّ الدِّلالةَ الاشتقاقيَّة للفعل فيها معنى العُلُوِّ والرِّفعة، فإنَّه يقال: انتفخ النَّهار؛ إذا عَلا[3]، ويؤكِّد التَّكريمَ الظَّرفُ ﴿فِيهِ﴾

(1) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 104.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (نفخ).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (نفخ).

الدّالُّ على الاحتواء والوعاء[1]، فصار الإنسانُ وعاءً لهذا النَّفخ، وصارت النَّفخةُ محيطةً الإنسانَ من جميع جوانبه؛ لأنَّ الظَّرفيَّة تمكُّنٌ واستقرار.

نُكْتَةُ إضافةِ الرّوح إلى ضمير الجلالة:

إضافةُ الرّوح إلى بارئها رمزٌ للتّشريف والتّكريم

الإضافةُ في قوله: ﴿مِن رُّوحِهِۦ﴾ إضافةُ تشريفٍ وتكريم، كبيت اللّه، وناقةِ اللّه[2]، والمضاف يكتسب قيمتَه مِنَ المضاف إليه، فعظَمة الضَّميرِ العائد إلى اللّه، عظَّمَ المضاف (روح)، وقد تكون نُكْتَةُ الإضافةِ قائمةً في الإيماء إلى أنَّ له شأنًا ومناسبةً ما إلى حضرة الرُّبوبيَّة[3]، وقد يقال: إضافة الرّوح إلى ضمير الجلالة؛ للتَّنويه بذلك السِّرِّ العجيب الَّذي لا يعلم تكوينَه إلّا هو تعالى، فالإضافة تُفيد أنَّه مِن أشدِّ المخلوقات اختصاصًا باللّه تعالى، وإلّا فالمخلوقات كلُّها للّه[4]، فهي إضافةُ مُلْكٍ إلى مالِكٍ، وخَلْقٍ إلى خالِقٍ[5].

معنى الواو في قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ﴾:

مطلقُ الجمعِ في السّياق مفيدٌ تعديدَ النِّعم

الواو في قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ﴾ لمطلق الجَمْع، وهي تُفيد مع معطوفها بيانَ تعديدِ النِّعم الَّتي أنعمها اللّهُ على الإنسان، مِن خَلْقٍ وتسوية، وجَعْلٍ للأعضاء الَّتي يحيا مِن خلالها.

سِرُّ التَّعبير بالجَعْل دونَ الخَلْق:

عموميَّةُ الجَعْل مفيدةٌ للمُراد المُستفاد

الجَعْلُ أعمُّ مِنَ الخَلْق والصُّنع[6]، ومِن ثَمَّ فكلُّ جَعْلٍ خَلْقٌ، وليس كلُّ خَلْقٍ جَعْلًا، فكان الجَعْلُ أعمَّ وأشملَ، إضافةً إلى أنَّ الخَلْق إنشاءٌ وإيجاد، أمّا الجَعْلُ؛ فإنشاءٌ وإبداع، ففيه أيضًا عموم، فكأنَّ الجَعْلَ خَلْقٌ وزيادة.

---

(1) سيبويه، الكتاب: 4/ 226.
(2) الخازن، لباب التّنزيل: 3/ 403.
(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 4/ 388، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 121.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 216.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 433.
(6) الرّاغب، المفردات: (جعل).

بلاغةُ الالتفاتِ من ضمائر الغَيْبة إلى الخطاب:

إفـادةُ السّياق إبـــرازَ عـظَـمـةِ النِّعم والتَّوبيخَ على قِلَّة الشُّكر

عدلتِ الآيةُ الكريمة من الغيبة إلى الخطاب، في قوله: ﴿فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾، وفي قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ﴾؛ تنبيهًا على جَسامَة نِعَم هذه الجوارح، وتوبيخًا على قِلَّة الشُّكر عليها[1]، ثمَّ في المخاطبة تكريمٌ وعناية وحفل، فمِثْلُكم يستحِقُّ أن يُخاطَب، ويُمْتَنَّ عليه بالنِّعَم، ويُضاف إلى ذلك: أنَّ الخطاب يكون مع الحيِّ، فلمّا قال: ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾؛ خاطَبَهُ من بَعْدُ، وقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ﴾[2].

معنى اللّام في ﴿لَكُمُ﴾، وفائدةُ مجيئها:

بـيـانُ الـعـنـايـةِ وقَـصْـرُ الاهتمامِ على كـلِّ مراحل التَّكوين

اللّام في ﴿لَكُمُ﴾ دالَّةٌ على التَّخصيص، فالإنسانُ هو المقصود بهذا الجَعْل وهذا الاختصاص؛ كي تكتملَ هيئتُهُ الحسنة الطَّيِّبة، وفيه كافُ الخِطاب التي تُشير إلى كرامة الإنسان، وأنَّه أهلٌ لخطاب اللّه تعالى، فاستحقَّ كافَ الخطاب مع التَّخصيص؛ عنايةً بكلِّ مرحلةٍ من مراحل التَّكوين، وإحسانًا لهذا المخلوق الَّذي يُصْنَع على عين اللّه.

نُكْتَةُ تقديمِ شبهِ الجملة ﴿لَكُمُ﴾ على المفاعيل:

الاهتمامُ بالمقدَّم والتَّشويق إلى المؤخَّر مفيدٌ في الإبانة

نُكْتَةُ تقديم ﴿لَكُمُ﴾ على المفعولِ الصَّريح، أساسُها الاهتمامُ بالمُقدَّم والتَّشويقُ إلى المُؤخَّر، مع ما فيه من نوع طُولٍ يُخِلُّ تقديمُه بجزالةِ النَّظم الكريم، أي: خلق لمنفعتكم تلك المشاعرَ؛ لتعرفوا أنَّها نِعَمٌ جليلةٌ[3]، وقد يُضاف إلى ذلك: أنَّ السِّرَّ هنا التَّعجيلُ بالبشارة والنِّعمة؛ جلبًا للمَسرَّة والشُّكر.

نُكْتَةُ إفرادِ السَّمع دون الأبصار والأفئدة:

تـوحُّـد قـوَّةِ السَّمع لورود لفظِها مصدرًا

في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾، ذَكَر في السَّمع المصدرَ، وفي البصر والفؤاد الاسمَ، ولهذا جمعَ الأبصار

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 5/ 436.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 141.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 81.

والأفئدة، ولم يجمع السَّمع؛ لأنَّ المَصدر لا يُجمَع، وذلك لحكمة، وهو أنَّ السَّمع قوَّةٌ واحدة، ولها فعلٌ واحد، فإنَّ الإنسان لا يَضْبِط في زمانٍ واحد كلامين، والأذن محلُّه، ولا اختيارَ لها فيه، فإنَّ الصَّوت من أيِّ جانب كان يصل إليه، ولا قدرةَ لها على تخصيص القوَّةِ بإدراك بعضٍ دونَ بعضٍ، وأمّا الإبصارُ؛ فمَحلُّه العينُ، ولها فيه شِبهُ اختيار، فإنَّها تتحرَّك إلى جانب مرئيٍّ دون آخر، وكذلك الفؤادُ محلُّ الإدراك، وله نوعُ اختيار، يلتفت إلى ما يريد دونَ غيرِه، وإذا كان كذلك، فلم يكن للمَحلِّ في السَّمع تأثير، والقوَّةُ مستبدَّة، فذكر القوَّةَ في الأُذن، وفي العين والفؤاد للمَحلِّ نوعُ اختيارٍ، فذَكَر المَحلَّ؛ لأنَّ الفعل يُسنَد إلى المختار، ألا ترى أنَّك تقول: سمع زيد، ورأى عمرو، ولا تقول سمع أذن زيد، ولا رأى عين عمرو، إلّا نادرًا؛ لما بيَّنّا أنَّ المختار هو الأصل، وغيره آلته، فالسَّمعُ أصل دونَ محلِّهِ لعدم الاختيار له، والعين كالأصل، وقوَّةُ الإبصار آلتها، والفؤاد كذلك، وقوَّةُ الفهم آلته، فذكر في السَّمع المصدرَ الَّذي هو القوَّة، وفي الأبصار والأفئدة الاسمَ الَّذي هو محلُّ القوَّة، ولأنَّ السَّمع له قوَّة واحدة، ولها فعل واحد، ولهذا لا يسمع الإنسان في زمان واحد كلامين على وجه يضبطهما، ويدركُ في زمان واحد صورتين وأكثر، ويستبينهما[1]، وممّا قيل في سِرّ إفراد السَّمع ما نقله رشيد رضا عن شيخه محمَّد عبده، فقال: "وأنا أرى في مسألة هذا الجمع والإفراد رأيًا آخر؛ إذ لو صحَّ ما قيل؛ فإنَّ البصر أيضًا مصدر، فلماذا جمعه؟ والذي أراه: أنَّ العقل له وجوه كثيرة في إدراك المعقولات، فليس النّاسُ فيه سواء، فجُمِع لاختلاف النّاس فيه، وأنواعِ تصرُّفهم في وجوهه بخلاف السَّمع، فإنَّ أسماع النّاس تتساوى في إدراك المسموعات، فلا تتشعَّب تشعُّبَ العقول في إدراك المعقولات، وأمّا الأبصار؛ فهي مثلُ العقولِ في التَّشعُّب، وأعظم مُعين للعقول في إدراكها؛ لأنَّ أنواع المبصرات كثيرةٌ، فتُعطي للعقل موادَ كثيرة، والسَّمع لا يُدرِكُ إلّا الصَّوت"[2].

نُكْتَةُ التَّقديمِ والتَّأخير بين وسائل الإدراك:

نُكْتَةُ التَّقديم والتَّأخير في قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ﴾، هو التَّرتيب على مقتضى الحكمة؛ وذلك لأنَّ الإنسان يسمع أوَّلًا مِنَ الأبوين أو النّاس أمورًا، فيفهمُها،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 142.
(2) رضا، تفسير المنار: 1/ 121.

ترتيب الموجودات في الإنسان دقَّةٌ في تحديد وظائفها

ثمَّ يحصل له بسبب ذلك بصيرةٌ، فيبصرُ الأمورَ، ويُجريها، ثمَّ يحصل له بسبب ذلك إدراكٌ تامٌّ وذهنٌ كامل، فيستخرج الأشياء من قِبَله، ومثاله: شخص يسمع من أستاذ شيئًا، ثمَّ يصير له أهليَّةُ مطالعةِ الكتب، وفهْمِ معانيها، ثمَّ يصير له أهليَّةُ التَّصنيف، فيكتبُ من قلبه كتابًا، فكذلك الإنسانُ يسمعُ، ثمَّ يُطالع صحائفَ الموجودات، ثمَّ يعلمُ الأمورَ الخَفيَّة[1].

نُكْتَةُ الاقتصارِ على هذه النِّعم دونَ غيرها:

بهذه النِّعم يُدرَكُ الحقُّ ويتَوصَّل للهُدى

غرضُ الخَلْق هو الوصول للحَقِّ وإدراكِه، وبالسَّمع والبصر والفؤاد، تتمُّ هذه العمليَّة، فالغرضُ الرَّئيس هنا إدراكُ الحقِّ والهُدى[2]، فلذلك خُصَّت هذه النِّعمُ بالذِّكر دونَ غيرها، فضلًا عن كون هذه النِّعم الثَّلاثة هي نوافذُ المعرفةِ بالنِّسبة للإنسان.

نُكْتَةُ العدولِ عن أسماء الفاعلين:

بيانُ المِنَّة بالحواسِّ مع دلالة الرَّوعة والجلال فيما أُعطي للنّاس

العدول عن أن يقال: (وجعلكم سامعين مبصرين عالمين)، إلى قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ﴾؛ لأنَّ ذلك أعرقُ في الفصاحة، ولما تُؤْذِن به اللّام من زيادة المِنَّة في هذا الجَعْل؛ إذ كان جَعْلًا لفائدتهم ولأجلهم، ولما في تعليق الأجناس مِنَ السَّمع والأبصار والأفئدة بفعل الجَعْل مِنَ الرَّوعة والجلال في تمكُّن التَّصرُّف، ولأنَّ كلمة (الأفئدة) أجمعُ من كلمة (عاقلين)، فالفؤادُ يشمل الحواسَّ الباطنة كلَّها، والعقلُ بعضٌ منها[3].

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظيِّ:

بيانُ أنَّ التَّرتيبَ يُراعَى لرعاية ترتيبِ حصولها في واقع الوجود

بين آيتي السَّجدة والبقرة تشابهٌ لفظيٌّ، ففي السَّجدة قُدِّم السَّمعُ والأبصارُ على الأفئدة، في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ﴾، عكس آية البقرة، حيثُ قال تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 141.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 8/ 39.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 217.

عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ﴾ [البقرة: 7]؛ لأنَّه روعيَ في آية السَّجدة ترتيبُ حصولِها في الوجود، فإنَّه تُكتَسب المسموعاتُ والمبصرات قبلَ اكتساب التَّعقُّل[1]، وهذا ما لم يكن مُراعًى في سورة البقرة، حيثُ بدأ بالقلوب الَّتي هي الأنسب لما بدأ فيه السّياق: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ [البقرة: 10].

نُكْتَةُ فصلِ قوله: ﴿قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾:

تذييل الآية الكريمة بقوله: ﴿قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾؛ وذلك لبيان قُبح هؤلاء الَّذين لا يشكرون، أو يشكرون قليلًا، وفي تقديم اللَّفظة مع فصلها عمّا سبق إشارةٌ إلى قصورهم وجَحدِهم ناحيةَ نِعَمِ الله.

بيانُ حالِ قُبحِ الكفّار وقصورِهم عن شُكرِ المنعِمِ الغفّار

نُكْتَةُ التَّعبير بـ ﴿قَلِيلٗا﴾، بينَ الحقيقة والكناية:

في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾، لفظة ﴿قَلِيلٗا﴾ في النَّظم القرآنيِّ اسمُ فاعل منتصبٍ على الحال من ضمير ﴿لَكُمُ﴾، و﴿مَّا تَشۡكُرُونَ﴾ في تأويل مصدر، وهو مرتفعٌ على الفاعليَّة بـ ﴿قَلِيلٗا﴾، أي: أنعم عليكم بهذه النِّعَم الجليلة، وحالكم قِلَّةُ الشُّكر، ثمَّ يجوز أن يكون ﴿قَلِيلٗا﴾ مستعملًا في حقيقته، وهي كون الشَّيء حاصلًا، ولكنَّه غيرُ كثير، ويجوز أن يكون كنايةً عنِ العدم، كقوله تعالى: ﴿فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٤٦﴾ [النّساء: 46]، وعلى الوجهين يحصل التَّوبيخ؛ لأنَّ النِّعم المستحقَّة للشُّكر وافرةٌ دائمة، فالتَّقصير في شكرها وعدمِ الشُّكر سواء.

قِلَّةُ الشُّكرِ وعدمُه سواء وهو داءٌ ما له دواء

نُكْتَةُ تنكيرِ لفظِ ﴿قَلِيلٗا﴾:

التَّنكير للفظ ﴿قَلِيلٗا﴾ للتَّقليل، وهو بيانٌ لكفرهم بتلك النِّعم بطريق الاعتراض التَّذييليِّ، على أنَّ القِلَّة بمعنى النَّفي، كما يُنبئ عنه ما بعدَه، أي: شكرًا قليلًا، أو زمانًا قليلًا تشكرون[2]، وفيه

بيانُ أنَّ قلّةَ الشُّكرِ هي ديدَن أهلِ الكفر

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 217.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 81.

تحذيرٌ للمُخاطَبين على سوء تصرُّفهم وفعلِهم القبيح، بترك الشُّكر على النِّعم.

معنى ﴿مَّا﴾ في قوله: ﴿مَّا تَشْكُرُونَ﴾:

﴿مَّا﴾ في قوله: ﴿مَّا تَشْكُرُونَ﴾ مصدريَّةٌ، والتَّقدير: قليلٌ شكرُكُم، وهي مؤكِّدة للقِلَّة، أي: شكرًا قليلًا، أو في زمان قليل تشكرون ربَّ هذه النِّعم فتوحِّدونه، وتعبدونه[1]، فالتَّوكيدُ تمكينٌ لمعنى عدمِ الشُّكر، وإزالةُ ما يعتري السّامعَ مِن شَكٍّ في وجود الشُّكر، وقد تكون ﴿مَّا﴾ بمعنى (الَّذي)، فكأنَّه قال: (فقليل الَّذي تشكرون)[2]، فلا تُعَدُّ زائدةً في الكلام.

تمكين معنى قلَّة شكرهم لبيان المراد مِنَ السّياق

نُكْتَةُ التَّعبير بـ ﴿تَشْكُرُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

في الشُّكر امتلاءٌ بالنِّعم، وقد جاء الفعل ﴿تَشْكُرُونَ﴾؛ لأنَّ الله أحسن كلَّ شيءٍ في الإنسان، بَدءًا من خلقه وتسويته وتصويره وإبداعه، فوجب الشُّكرُ على المَرء لكمال صنع الله، وبيان فضل الله على النّاس بالإيجاد، وفي التَّعبير بالمضارع دلالةٌ على أهميَّة الاستمرار في الشُّكر ودوامِه، واستحضارُ صورتِه دومًا؛ اعترافًا بالفضل والآلاء الَّتي أسبغها الله على البشر ظاهرًا وباطنًا، ثمَّ إنَّ العمدة في الشُّكر صرفُ تلك القوى - الَّتي هي في أنفسها نِعَمٌ باهرة - إلى ما خُلقت هي له[3]، وقد يكون في التَّعبير إشارةٌ إلى كفرهم، كأنَّ قِلَّة الشُّكر مفضيةٌ إلى كثرة الكفر وتمكُّنِه.

بيانُ كثرةِ نِعَمِ الله وآلائه ولزومُ الشُّكر

نُكْتَةُ حذفِ مفعول ﴿تَشْكُرُونَ﴾:

لحذف مفعول ﴿تَشْكُرُونَ﴾ نُكتٌ: أوَّلها: التَّعميم، ليَعُمَّ شكرُ الله، أو تشكرون النِّعمَ، أو غيرَ ذلك، ثانيها: رعايةُ الفاصلة القرآنيَّة، فالفاصلة قائمة على حرف النّون السّاكِن ما قبلَها (﴿طِينٍ﴾،

بيانُ العموميَّة والعجز عن إحصاء نِعَم الله

(1) المظهري، التّفسير المظهري: 7/ 269.
(2) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 3/ 35.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 257.

﴿مَّهِينٍ﴾، ﴿تَشۡكُرُونَ﴾، ﴿كَٰفِرُونَ﴾)، فلو ذُكِرَ المفعولُ؛ لما روعيت الفاصلة، وثالثها: كثرةُ النِّعم الَّتي أسبغها الله على العباد، فلِعدم إمكانيَّة العباد عدَّها وحصرها؛ جاء حذف المفعول، رابعها: في الحذف إشارةٌ إلى أهمّيَّة جَعْل الشُّكرِ عادةً وعبادة، حتّى وإن لم يُعْطَ الإنسانُ ما يريده، بدليل حذف المتعلِّق (لي)، فعدمُ تخصيص المشكور دالٌّ على أنَّ الشُّكر يجب أن يكون طبيعةً في الإنسان، بحيثُ لا تخلو ساعةٌ من شُكر.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الخَلْق والجَعْل:

في الجَعْل معاني التَّصيير والتَّضمين

الخَلْقُ فيه معنى التَّقدير، والجَعْل فيه معنى التَّضمين، كإنشاء شيء من شيء، أو تصيير شيء شيئًا، أو نقله من مكان إلى مكان، ومن ذلك قوله: ﴿وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ [الأعراف: 189]، ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ [الأنعام: 1]، ويؤيِّدُه أنَّ (جَعَلَ)، لم يصحب السَّموات والأرض، وإنَّما لزمتها (خَلَقَ)، وفي إضافة الخلق في هذه الآية إلى السَّموات والأرض، والجعل إلى الظُّلمات والنّور مصداق للمميَّز بينهما[1]، وقد يقال: (جعل) أعمُّ من خلق؛ لأنَّه لا يقال فيما ليس بمخلوق، و(الخلق) لا يقال فيما ليس بموجود[2]، وقيل: (الخلق) في القرآن – في كلِّ موضع ورد فيه – هو الإيجاد، إيجاد غيرِ الموجود، وإظهاره للوجود، قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [التّغابن: 3]، فالخَلْق: هو الإيجاد من عدم، وهو ممّا انفرد بهِ اللهُ ﷻ، ولهذا كان من صفاته الكريمة: الخالق، أمّا (الجعل)؛ فهو إضافةٌ تلحق المخلوقَ، وتكشف عن صفته، وتُبرز طبيعتَه، وهو توجيه الخالق للمخلوق،

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف مع حاشية الانتصاف لابن المنيّر: 2/ 3، وقد نقله بنصّه كثيرٌ من المفسّرين كالرّازي وأبي حيّان.
(2) الشّهاب، حاشية الشّهاب على البيضاوي: 4/ 5.

ليُعْطَى وظيفته، ويُحَقِّق وجوده، قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ [الكهف: 7]، ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١﴾ [النبأ: 9 - 11]، ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟﴾ [السّجدة: 24][1]، وقيل: الخَلْق يكون عن عدم سابق، حيثُ لا تتقدَّمُ مادَّةٌ ولا سببٌ محسوس، والجَعْل يتوقَّف على موجود مغاير للمَجعول، يكون منه المجعول أو عنه، كالمادَّة والسَّبب[2].

النَّسْلُ والذُّرّيَّة:

الذُّرّيَّة أعمُّ مِنَ النَّسل وكلاهما مفردة قرآنيَّة وجيهة

النَّسل: يعني الولد؛ لكونه ناسلًا من أبيه، منفصلًا عنه، ثمَّ في معنى النَّسل دلالةُ التَّوالد، يقال: تناسلوا، أي: توالدوا[3]، فسُمّيت الذُّرّيَّة نسلًا؛ لأنَّها تَنْسُل منه، أي: تنفصل منه، وتخرج مِن صلبه[4]، وفي هذا دلالةٌ على الاستطالة والامتداد، وعدم الانقطاع، فالنَّسلُ امتدادُ الشَّيء خارجًا أو متسيِّبًا مِن أصله أو مَقَرِّه بلطف ومفارقة[5].

أمّا الذُّرّيَّة؛ فنَسْلُ الرَّجل، على وزن (فُعّولة)، من ذَرَوت أو ذَرَيت، لكنَّ فيها معانيَ إضافيَّة، فقد تكون مِنَ الذَّرْء، بمعنى الخَلق، أو مِنَ الذَّرِّ، بمعنى التَّفريق[6]، وفي الذُّرّيَّة معنى التَّكثيرِ، تقول: ذَرأ الشَّيء، أي: كثَّره[7].

التَّسوية والتَّصوير:

بينهما في الدّلالة عمومٌ وخصوصٌ

التَّصوير ضربان: أحدهما: محسوس يدركه الخاصَّة والعامَّة، بل يدركه الإنسان بالمعاينة، والثّاني: معقول يدركه الخاصَّة دون العامَّة، كالصُّورَةِ الَّتي اختصَّ الإنسانُ بها من العقل، والرّويَّة، والمعاني

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 4/ 123.
(2) الزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن: 4/ 129.
(3) الرّاغب، المفردات: (نسل).
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 503.
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (نسل).
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/ 156.
(7) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: (الذرية).

الَّتي خُصَّ بها شيءٌ بشيء، وإلى الصُّورَتَيْن أشار بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ﴾ [الأعراف: 11]، ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: 64][1].

أمّا التَّسويَةُ؛ فجَعْلُ الأعضاء سويَّة سليمة، معدَّة لمنافعها، وهي في الأصل: جَعْلُ الأشياء على سواء، فتكون على وفق الحِكمة ومقتضاها، بإعطائها ما تتمُّ به.

وكأنَّ التَّسويَةَ جزء من التَّصوير، فالتَّصوير عامٌّ، يدلُّ على الهيئة الخارجيَّة، وهذا تسوية أيضًا، ويزيد التَّصوير في كونه دالًّا على العقل والرّويَّة، وهذا ما ليس في التَّسويَةِ.

الفؤاد والقلب:

الـفـؤاد غـشاء الـقـلـب وهـو مجموع العضوِ الأشـــرف في الجسم

لم يفرِّق أهلُ اللُّغة بين الفؤاد والقلب، بل عرَّفوا كلًّا منهما بالآخر، وقيل: الأفئدة توصف بالرِّقة، والقلوب باللّين؛ لأنَّ الفؤاد غشاءُ القلب، إذا رقَّ؛ نفذ القولُ فيه، وخَلُص إلى ما وراءَه، وإذا غَلُظَ؛ تعذَّر وصولُه إلى داخله، وإذا صادف القلبُ شيئًا؛ عَلِق به إذا كان ليِّنًا[2]، وقيل: القلب هو العَلَقة السَّوداء في جوف الفؤاد، دون ما يكتنفها من اللَّحم والشَّحم، ومجموع ذلك هو الفؤاد، ومنهم مَن قال: القلبُ والفؤادُ لفظان مترادفان، وكيف كان؛ فيجب أن يُعْلَم أنَّ من جملة العضو المسمَّى قلبًا وفؤادًا موضعًا، هو الموضع في الحقيقة للعقل والاختيار، وأنَّ معظم جِرْم هذا العضو مسخَّر لذلك الموضع، كما أنَّ سائر الأعضاء مسخَّرة للقلب، فإنَّ العضو قد تزيد أجزاؤه من غير ازدياد المعاني المنسوبة إليه، أعني: العقل والفرح والحزن، وقد ينقص من غير نقصانٍ في تلك المعاني، فيُشبه أن يكون اسمُ القلب اسمًا للأجزاء الَّتي تحلُّ فيها هذه المعاني بالحقيقة، واسم الفؤاد يكون اسمًا لمجموع العضو[3].

(1) الرّاغب، المفردات: (صور).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 433.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 532.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والأربعون،
سورة لقمان من الآية 21 إلى سورة الأحزاب الآية 25
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2025م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والأربعون، سورة لقمان من الآية 21 إلى سورة الأحزاب الآية 25
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2025.
مج. 44 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-97-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 44 : المجلد الرابع والأربعون، سورة لقمان من الآية 21 إلى سورة الأحزاب الآية 25.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-97-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4197137 بتاريخ 2025/01/02م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»